

كذلك يفعل الأب الذي يرى بين يديه ولدًا مريضًا ميؤسًا من شفائه وهو لا يستقر إلى التسليم، وكذلك يفعل المخرج الذي يرى أن العمل واجب؛ لأنه خير من سكون لا صبر له عليه، وكذلك يفعل الذي لا بد أن يفعل؛ لأنه بالفعل يستريح، أما بالسكون فلا راحة ولا أمل في الراحة.

وأتبع وصول الخطاب حديث بالتليفون.

لم يكن هذا الحديث بالمقصود، ولكنه لم يكن كذلك بالمكروه ولا بالمرفوض. وأتبع الحديث موعد وزيارة.

وجاءت في الموعد وهي تبدو بتلك الطلعة التي يعهدها منها بعد كل مغاضبة وقبل كل مصالحة، طلعة السفير الذي يدخل المملكة الغريبة ولا يدري أحرب أم سلام، فهو لا يبرز القوة ولكنه يتقي أن يبرز الضعف، ولا يحمل غصن الزيتون ولكنه مستعد به في الحقيبة المغلقة، ولا يتجهم ولكنه لا يتطلق ويتبسط ... فلم تنهياً للموعد بزيتها التي تعلم أنها تروقه وتستجلب هواه، ولكنها لم تهمل زينتها إهمال المعرض قليل الاكتراث، فهي زينة صالحة مع قليل من الاعتذار، وإذا وصل الأمر إلى هذا فأى اعتذار لا يغني غناه ولو جاء عفو الساعة؟!

وكان من دأبها أن تختلس رضاه وتحطم الحواجز بينها وبينه بسلاح من سلاحين: بالدعابة والتهكم، أو بالأسى والتضعضع، فأما في هذه المرة فسلاح الأسى والتماس الشفقة لن يلائم مظهر السفارة التي تتردد بين الحرب والسلام، فدخلت من الباب وهي تُشهر سلاح التهكم والمناوشة، والتفتت وهي داخلة كمن ضل الطريق وأفضى به السير إلى غير المكان المتوقع، فقالت وهي تلقي بقبعتها: من أكبر العجب أنني وصلت إلى هنا ولم أصل إلى المعبد!

قال «هَمام» في سره: ويحك! هذه تحية وعظك! ثم أجابها من نمط تحيتها قائلاً: معبد؟ استغفري الله يا أمة الله! وهل تستطيع قدامك أن تحملك إلى المعبد ولو قادك إليه ألف دليل؟

قالت ولم تترث: إنه لتقريبٌ حسنٌ لبيتك أن يكون هو المكان الوحيد الذي تحملني إليه قدامي!

قال: وهل تحسبيني أغتبط بهذا التقريب؟

قالت: معاذ الله! ولا سيما وأنت بخطابك صاحب دعوى في الهداية والإرشاد لا تقل عن دعوى أهل الصناعة ... ومع ذلك لا أظنك آسفًا لهذه الغلطة.